الشهداء : شهادةٌ يجب ألاَّ تُنسى

رئيس التحرير

في غمرة المراسيم الطقسيّة والتظاهرات الإيمانية التي نُقيمها بمناسبة الذكرى ٢٠٠٠ لميلاد ربّنا يسوع ، علينا أن نُحيي ذكرى المؤمنات والمؤمنين ، الذين أحبّوا المسيح حبًا جمًا ، فاعتنقوا مبادءَه السامية بكل حماسة ، وطبّقوا وصاياه السنيّة بكل اندفاع ، وأعطوا بذلك شهادة بليغة عن بشارة الإنجيل لسائر إخوتهم البشر عبر عشرين قرنًا ، ملبّين دعوة معلّمهم الإلهي التي وجّهها الى تلاميذه قبل صعوده الى السماء قائلاً : « وتكونون لي شهوداً في أورشليم ، وكل اليهوديّة والسامرة ، حتى أقاصي الأرض» (أعمال ١/٨) ، وختموا هذه الشهادة بدمائهم الزكية بشجاعة لا نظير لها ، قال عنها قداسة البابا يوحنا بولس الثاني : « **إنها شهادةٌ يجب الاّ تُنسى** ، لقد عملت كنيسة القرون الاولى ، برغم ما كان يعترضها من صعوبات في تنظيم أحوالها ، على تدوين شهادات الشهداء في كتب سيرَ الشهداء ...» (إطلالة الألف الثالث ٣٧) . علينا إذن أن نتأمل سِيَرَ هؤلاء الأبطال خلال عام اليوبيل الكبير ، لنقتدي بفضائلهم ونلتمس شفاعتهم .

دمُ الشهداء بذارٌ أنبتَ المسيحيين

إن الإضطهادات الشرسة التي شنتها الوثنيّة على المسيحيين ، خلال القرون الميلادية الاولى ، لم تبلغ غايتها الشرّيرة ، وهي القضاء عليهم ، بل أتت بنتائج معاكسة لها ، لأن منظر المؤمنين الذين كانوا يجابهون الإستشهاد برباطة جأش ، مفضّلين الموت على نكران المسيح المخلص ومانح الحياة الأبدية ، أثارت مشاعر الإكبار لدى المشاهدين غير المسيحيين ، الذين بدأوا يستفسرون عن السر الكامن وراء هذه الشجاعة ، فأدركوا أنه هو إيمانهم المسيحي ، فأعجبوا به ، وتأكّدوا أنه الإيمان الحق ، فاهتدوا إلى المسيحيّة بأعداد كبيرة .

هكذا كان كل شهيد نظير تلك حبّة الحنطة ، التي تموت في الأرض ، ولكنها تمنح الحياة لحبّات كثيرة أخرى (يوحنا ٢٤/١٢) . لقد كان الشهداء خير من بشّر بالمسيح وهدى الناس إلى بشارة الإنجيل عبر كلامهم ومثالهم وتضحياتهم ، فاختصر ترتوليان ذلك بعبارته الشهيرة: « إن دمَ الشهداء بذارٌ أنبت المسيحيين» (Tertullien, Apol., 50, 13 : CCL I, 171).

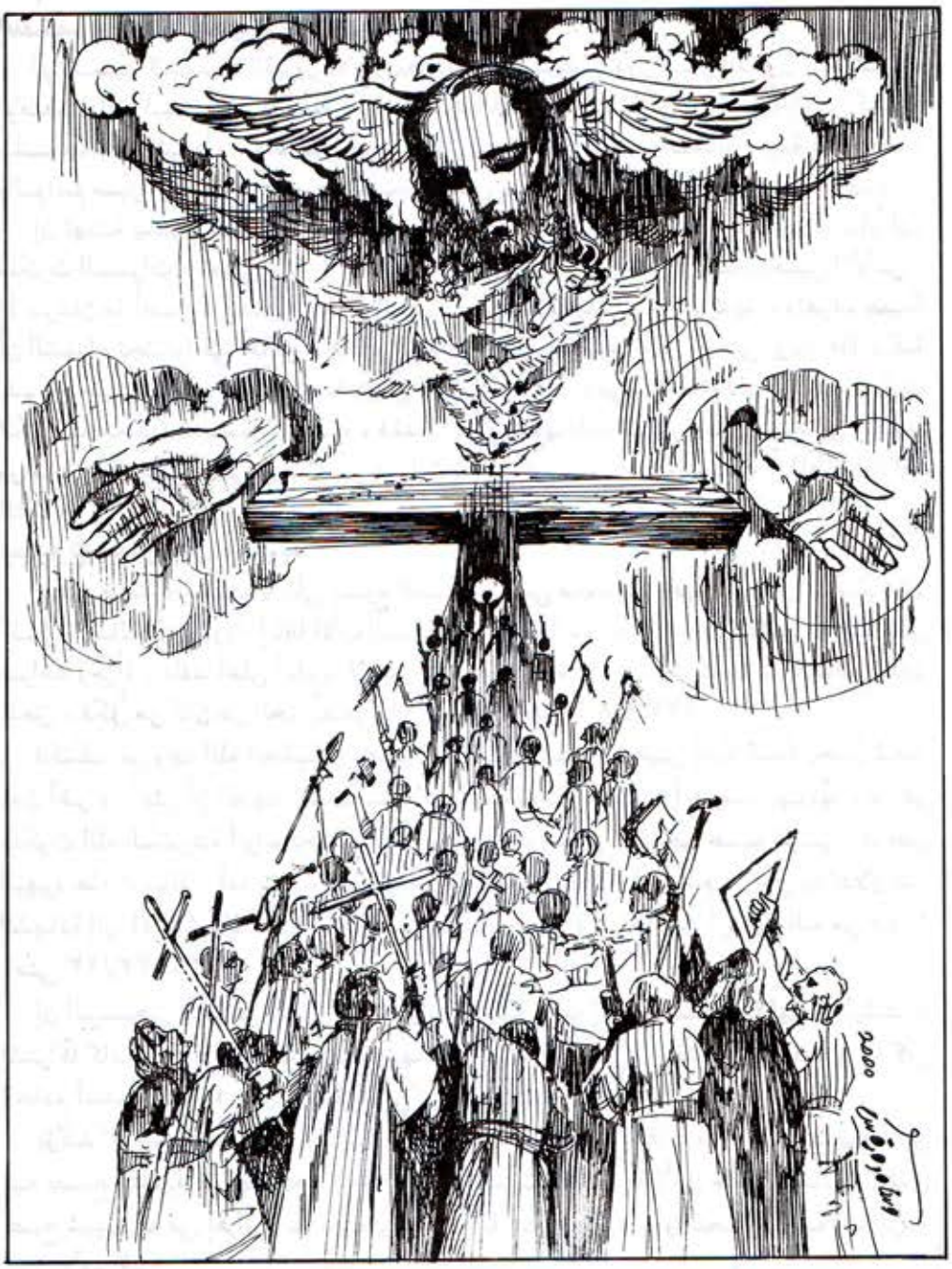

إستمرار الإستشهاد في الكنيسة

لم تتميّز كنيسة القرون الاولى بطابع الإستشهاد دون سائر القرون ، إذ شملت الإضطهادات كنيسة كلّ الازمنة ، كما يقول القدّيس أوغسطينوس : « إن الارضَ كلّها مشبعة بدم الشهداء ، والسماء مزدهرة بأكاليلهم ، والكنائس والمعابد مزيّنة بمراقدهم ، والمواسم مميّزة بأعيادهم ، وصحّة الجسد والنفس موفورة بفضل شفاعتهم واستحقاقاتهم» .

إن تهنئة يسوع التالية للمضطهدين : «طوبى للمُضطهدين من أجل البر ، فانّ لهم ملكوت السموات» (متى ٥/١٠ ، لوقا ٦/٢٢) ، لم تبقَ محصورة بالمسيحيين الأولين ، إذ سرعان ما أصبحت إحدى الصفات المميّزة لكنيسة الأزمنة والأمكنة كلّها ، ونعرف جميعًا أن الشهداء تجندلوا في أماكن عديدة من العالم ، عبر العصور كلّها ، وحتى يومنا هذا ، كما يقول الحبر الاعظم البابا يوحنا بولس الثاني : « ... وفي نهاية الألف الثاني صارت الكنيسة مجدداً كنيسة الشهداء ، فقد أدّت الإضطهادات المثارة على المؤمنين ، كهنة ورهبانًا وعلمانيين ، الى زرع وفير من الشهداء في شتى أنحاء العالم» . (إطلالة الألف الثالث ٣٧) .

يسوع مثال كل شهيد

تنطبق صفة «الشهيد» على يسوع المسيح بأسمى معانيها ، فهو نموذج الشهيد ، إذ أكمل الرسالة التي أولاه إياها الآب السماوي بكل أمانة وثبات ، وأدّى الشهادة للّه بكل صراحة وجُرأة ، فلقد أعلن أمام بيلاطس خلال المحاكمة : « ... وُلدتُ وأتيتُ العالمَ لأشهدَ للحق ، فكلُّ من كان من الحق يُصغي الى صوتي » (يوحنا ١٨/٣٧) .

فكشَفَ عن وجه الله الحقيقي ، فهو أبٌ للبشر جميعًا ، وليس إلهًا قبليًا يخصّ شعبًا دون آخر ، وأعلن أن العهد القائم بين الله والشعب ليس امتيازاً قوميًا يهوديًا ، بل هو ملكوت الله المُشرعة أبوابه لجميع الذين يؤمنون ، وأنه أتى لخلاص جميع البشر ، فرفض اليهود هذه الرسالة . أما يسوع فاستمرّ في أداء هذه الشهادة بلا تراجع ، وأدّى به اعلان هذه الشهادة إلى الاستشهاد . ألم يكن الموت نصيب جميع الأنبياء الذين أرسلهم الله من قبل ؟ (متى ٢٣/٣٣-٣٥) .

إن المسيحي ، حينما يقبل الإستشهاد ، فإنما يقبله إقتداءً بمعلّمه الإلهي ، فيشترك إشتراكًا كاملاً في أداء رسالة يسوع وشهادته وعمله الخلاصي ، ولقد سبق أن قال « ما كان الخادم أعظم من سيّده ، فإذا اضطهدوني ، فسيضطهدونكم أيضًا» (يوحنا ١٥/٢٠) .

يؤكّد المجمع المسكوني الڤاتيكاني الثاني الشيء عينه قائلاً : « ... الإستشهاد الذي فيه يصبح التلميذ شبيهًا بمعلّمه الذي قَبِلَ الموت بكل حرية لأجل خلاص العالم ، والذي يصبح شبيهًا به في إهراق دمه ، لتعتبره الكنيسة عطيّة سامية ، وامتحانَ المحبة المطلق » (نور الأمم ٤٢) .

ألإستشهاد علامة لشركة القدّيسين

إعتبرت الكنيسة الإستشهاد علامةً مرئية لشركة القدّيسين ، التي تضمّ المؤمنين الذين على الأرض والطوباويين الذين في السماء ، إذ يشكّلون معًا جسدَ يسوع المسيح الواحد ، ويشتركون معًا في خيرات الخلاص ؛ وتظهر هذه العلامة من خلال النشـــاطات الدينية الثلاثة :-

أً - **ألإحتفاظ بذخائر القدّيسين** : خصصت جميع الكنائس في معابدها أماكن لذخائر الشهداء منذ القرن الرابع . نجدُ في منتصف الجدار الشمالي من بناية كنيسة المشرق القديمة بابًا يدخلون منه إلى غرفة صغيرة تُسمى «بيت الشهداء» ، يحتفظون فيها بذخائر الشهداء ، حيث يقوم المؤمنون بزيارتها ، كما تقام في هذه الغرفة صلوات خاصّة أيام أعياد الشهداء .

بً - **الاحتفال باعياد الشهداء** : كرّست كلّ الكنائس أيامًا خاصّة أثناء السنة الطقسية للإحتفال بأعياد هؤلاء الأبطال ، ففي طقس كنيسة المشرق تُعتبر كل الجمع الواقعة في زمن الدنح أعياداً لهؤلاء القدّيسين الذين شهدوا للمسيح من خلال تعاليمهم ومثال حياتهم واستشهادهم .

جً - **ألصلاة الفرضيّـــة** : إن الصلاة الفرضيّة مليئة بالأدعية التي تشيد بتضحيات الشهداء وتلتمس شفاعتهم . يُقام فرضان في طقس كنيســـة المشـــرق يـــوميًا ، أحـــدهما بعد صلاة الصباح والآخر بعد صلاة المساء تكريمًا للشهداء ، يتكون من إبيات شعرية (**حذفيثا**) ومن صلوات كهنوتية ، لا بُدّ أن هذه الأبيات كانت تُرتّل قديمًا أثناء طواف يقومون به من البيم الى بيت الشهداء .

إتّساع مفهوم الإستشهاد

لم يقتصر مفهوم كلمة «الشهداء» على الذين ماتوا من أجل المسيح ، بل اتّسع تدريجيًا ليشـــمل كل الذين أدّوا ويؤدّون الشهادة عن الإنجيل من خلال كلامهم وكتاباتهم ومثال حياتهم ، وكل الذين يعملون على نشر ملكوت الله على الأرض - ملكوت العدالة والمحبة - وهو الهدف الذي من أجله تأنّس المسيح ، وذلك من خلال الخدمات التي يقدّمونها لأخوة يَسوع ، ويضحّون بوقتهم ويتحمّلون صعوبات الحياة وآلامها من أجل هذه الشهادة ، وهم على استعداد دائم ليضحّوا بحياتهم من أجل المسيح وأداء الشهادة لإنجيله .

يقول المجمع المسكوني الڤاتيكاني الثاني في هذا الصدد : «إذا كان لم يُعطَ إلاّ لعدد قليل (أن يستشهدوا) ، إنما على الكل أن يكونوا على استعداد ليعترفوا بالمسيح أمام الناس ، وليتبعوه على درب الصليب عبر الإضطهادات التي لا تفتقـــدها الكنيسة أبداً » (نور الامم ٤٢) .

نودُ أن نختم هذه الصفحات القليلة بأقوال قداسة البابا يوحنا بولس الثاني ، التي وردت في رسالته « إطلالة الألف الثالث » حيث يؤكّد : «في قائمة القديسين والطوباويين في الكنيسة أُدرجت اسماء ، لا الذين أراقوا دمهم في سبيل المسيح وحدهم ، بل ايضًا أسماء معلّمي الإيمان ومرسَلين ومعترفين وأساقفة وكهنة وعذارى ومتزوّجين وأرامل وأولاد » (إطلالة الألف الثالث ٣٧) .

عيد مار توما الرسول
ألإثنين ٣ تموز ٢٠٠٠